كلمة التحرير

مقاصد القرآن الكريم في بناء الحضارة والعمران

هيئة التحرير

القرآن الكريم هو الكتاب الأخير الذي ختم الله سبحانه به الرسالات السماوية ليكون هدى ورحمة للناس إلى يوم البعث. ولذلك لا عجب أن يكون موضوعاً للدراسات المتواصلة تفسيراً وتأويلاً وبحثاً. وقد تواصلت هذه الدراسات عبر العصور، وشهدت جهوداً كبيرة تنوعت في مناهجها واتجهاتها واختلفت في أغراضها ومقاصدها، وشارك فيها مؤمنون يبتغون الهدى في القرآن الكريم، وجاحدون من أهل الفتنة والزيغ، يسعون للتشكيك فيه وتحريفَ كَلِمِهِ عن مواضعه. وليس من المتوقع أن تتوقف هذه الدراسات ما دام على الأرض مؤمنون وجاحدون.

ولم يكن موضوع البحث عن مقاصد القرآن غائباً عن هذه الدراسات، لكثرة ما تحدَّث القرآنُ الكريم نفسُه عن مقاصده، لكن غلبة مقاصد الباحثين على مقاصد القرآن كانت -في كثير من الأحيان- تُلَوِّن مناهج البحث ونتائجه، وتُهَمِّشُ مقاصد القرآن. وقد تنبَّه بعض الباحثين في العقود الأخيرة إلى ضرورة الاهتمام بالدراسات المقاصدية للقرآن الكريم، انطلاقاً من الإيمان بأنّ كل ما ورد في القرآن الكريم من الألفاظ والمعاني لم يأت عبثاً، ولم يقتصر على ترشيد حياة الفرد الإنساني وصلاحه في الدنيا وحسن مصيره في الآخر، وحسب، وإنما كان بالإضافة إلى ذلك يعالج قضايا الحرية والعدل في حياة المجتمع والأمة، ويستهدف بناء الحضارة والعمران، وحفظ نظام العالم، وهذه المقاصد لا يفرضها الباحث في القرآن الكريم تعسفاً وتكلفاً، وإنما هي قائمة واضحة في البنية القرآنية من جهة، وأصيلة عميقة في فطرة الله التي فطر عليها الفرد الإنساني والمجتمع البشري.

إن حرص العلماء على بيان مراد الله عز وجل في كتابه بقدر الطاقة البشرية يؤكد اتفاقهم على حضور البعد المقاصدي. وقد تمثل هذا الحضور فيما جاء به القرآن الكريم من مضامين، أو في العلل والحِكم والمعاني المستنبطة منه، أو في المقاصد الكلية والعليا

والعامة التي يمكن تحصيلها من مجموع أدلة الخطاب القرآني أو مجموع المعاني والحِكم والعلل. ولكن آراء العلماء قد تنوعت في طريقة تصنيف هذه المقاصد وترتيبها (أصلية وتبعية، عامة وخاصة، كلية وجزئية، عالية وقريبة إلخ)، وبيان علاقتها بالمضامين القرآنية. ولعل من الفائدة العظمى أن نكشف عن مناهج العلماء في تقسيم مقاصد القرآن، وعن الأسس التي اعتمدوا عليها في هذا التقسيم، وعن الاعتراضات التي يمكن أن توجه إلى تلك المناهج، ومستويات مقاصد القرآن، وأنواعها وما مراتبها.

إن تجلية الحِكم من كل ما جاء به القرآن الكريم، سيكشف عن المصالح التي جاء القرآن الكريم لتحقيقها، من سعادة الإنسان ومصلحته وتقرير ما فيه فائدته ونفعه، وتجلية المنهج القرآني في معالجة القضايا الإنسانية، وإثبات فاعلية هذه المصالح على أساس صلتها بالفطرة البشرية، ومن ثمّ الإسهام في حلّ بعض الإشكالات الناتجة عن سوء فهم للقرآن الكريم، ولا سيما في هذا العصر، فضلاً عن توظيف هذه المقاصد باعتبارها مصالح تحقق نهضة المسلمين وبناء حضارتهم.

وقد اختلفت تصنيفات الباحثين لمقاصد القرآن باختلاف منطلق كل واحد منهم؛ فمنهم منطلقه من الواقع، وبعضهم من جهود السابقين، وآخرون من الآيات، أو من السورة، وثمة من انطلق من الموضوعات، ومنهم مما أكدته وكررته آيات القرآن، وبعضهم من خصائص المكي والمدني. ونجد عدداً من الباحثين قد اعتمد مقاصد الشريعة أساساً لتصنيف المقاصد. كذلك اختلفت مقترحات الباحثين في معايير ترتيب المقاصد، فمنها ما كان حسب حاجة الناس كالعلم، ومنها حسب درجتها في الكمال، أو التفريق بين الغاية والوسيلة، الأصلي والتبعي، أو مراعاة الترتيب النزولي من خلال خصائص المكي والمدني، أو المتفق عليه في رسالات الأنبياء .... ولعلنا نتساءل في هذا السياق عن المنطلق الذي يمكن اعتماده في تصنيف المقاصد بهدف بناء المنظومة المقاصدية القرآنية وعن معيار ترتيب مفردات هذه المنظومة.

إنَّ الكشف عن المقاصد القرآنية يفرض البحث في مسالك وطرق تحصيلها. ومن هذه المسالك: المسالك الأصولية من: (الاستقراء، وأدلة القرآن الكريم الواضحة الدلالة،

ومسالك الكشف عن العلة)، دون أن يعني ذلك تحييد أصول التفسير كالتفسير بالسنة أو قرينة السياق المقالي والحالي، وكذلك المسالك البلاغية التي لا بدّ منها للكشف عن المقاصد القرآنية؛ إذ من خلالها يتجلى البعد التأثيري الإقناعي التواصلي للقرآن الكريم، غير المنفصل عن جميع المقاصد القرآنية، وبها يتم التمييز بين مستويات الدلالة. وما من شك في أنَّ ثمة مسالك وطرقاً أخرى للكشف عن المقاصد القرآنية، ولكن ما يهمنا أكثر في هذا الإطار دور هذه المسالك في بناء منظومة المقاصد القرآنية.

لقد أسهمت مناهج تفسير القرآن الكريم واتجاهاته في إعطاء بُعد آخر للكشف عن المقاصد القرآنية مع اختلاف غايات هذه المناهج وهدفها عن الاتجاه المقاصدي؛ فمن أهم المناهج الخادمة لهذا الاتجاه منهج التفسير الموضوعي الذي يدرس موضوعاً محدداً من الموضوعات القرآنية، مع ملاحظة الفرق بين الموضوع القرآني والمقصد القرآني. وما من شك في أن تطوير الحديث والمعرفة حول التفسير المقاصدي سيعكس وعياً حضارياً ممثلاً في القدرة على تفعيل النص القرآني في مجالات الحياة. وهذا يفرض على الباحثين والمشتغلين في الدرس المقاصدي والتفسيري إحداث التراكم المعرفي المتصل بالتفسير المقاصدي، وتبيان أهميته، وإجراءاته، وأهمية الاتجاهات والمناهج التفسيرية في الكشف عن مقاصد القرآن، وبيان أوجه الاتفاق والاختلاف بين الاتجاه المقاصدي القرآني والمناهج التفسيرية الأخرى.

إن النظر في حالة مقاصد القرآن الكريم يستدعي إجراء دراسات علمية حول مقاصد القرآن الكريم، لا سيما أن الجهود التي بُذلت حول مقاصد الشريعة يفوق بدرجات كبيرة ما بُذل حول مقاصد القرآن الكريم. وفي هذا السياق لا يستطيع المرء أن ينكر الجهود التي بُذلت في سبيل الكشف عن مقاصد القرآن الكريم، وتسليط الضوء على أهميتها في البناء الحضاري للأمة، ولكن ثمة حاجة لاستكشاف المزيد من هذه المقاصد، وتفعيلها في مختلف المجالات، وبلورتها في شكل منظومة تعين الفرد والمجتمع والأمة على تفحّص طريق النهوض، ومن ثم الإسهام في بناء الحضارة الإنسانية على منهج رباني قويم. هذا يطرح مراجعة صورة الإنسان المنتجة على هامش الفهوم

البشريّة/التاريخيّة للنصّ القرآني أو تلك المنضّدة في غير الفضاء القيمي الإسلامي، التي أنتجت نماذج فكريّة وصور ماديّة هجينة لا تتساوق وقبليّات المجتمع الإسلامي إن اقتبست بكلّ مكوّناتها الفكريّة وشحناتها الإيديولوجيّة. ومن ثمّ أصبح الحديث عن إعادة قراءة العقل الإسلامي في لغة تعويميّة تسعى إلى وضعه في خانة المتّهم، من حيث كونه رافداً من روافد الجذب إلى الماضي غير ممحّصة بين الأنموذج المرجعي والتجربة التاريخيّة للمرجع، وهو يطرح إشكاليّة الغيريّة وثقافة السلم الاجتماعي والإقليمي والكوني ويضعها ضمن راهنيّة تتطلّب الاشتغال والمراجعة الحينيّة والواعية، بعيداً عن الانفعال السلبي أو التهوّر الفكري الصدامي الأصولي بمعناه الإيديولوجي، لا بمعناه الفقهي–العلمي، والعمل على عرض الممارسات الإجرائيّة والنماذج المتداولة على التشكيلات النظريّة التي انبرت منها.

إن الحديث عن مقاصد القرآن الكريم في بناء الحضارة والعمران يفرض على الباحث المسلم حالة من القلق المعرفي الإيجابي تجاه مدى حضور الأسئلة البحثية المناسبة لتكوين إجابات حضارية قادرة على تنظيم العقل والوجدان المسلم؛ ليغدو قادراً على استئناف دوره الحضاري. بدلاً من حضور إجابات الآخر وفعله الحضاري في تكوين الشخصة المسلمة. ولعل هذه فرصة لكي تكوّن هذه الأسئلة خارطة بحثية ناجعة. ومن أهم هذه الأسئلة المتصلة بمقاصد القرآن في بناء الحضارة والعمران: ما مقاصد القرآن الكريم العامة؟ وما مقاصده الخاصة ببناء الحضارة والعمران؟ وكيف يمكن الكشف عنها في نصوص القرآن الكريم؟ وإذا صح القول بأن الدراسات القرآنية السابقة قد قصرت في الكشف عن تلك المقاصد الخاصة بالحضارة والعمران، فلم كان ذلك كذلك؟

وهذا العدد المخصص لموضوع مقاصد القرآن في الحضارة والعمران، ينطلق من اهتمام المعهد منذ زمن مبكر بموضوع المقاصد؛ إذ أفرد مساحة مناسبة لتطوير العلم والمعرفة والمنهج في موضوع المقاصد. وجاء الحديث عن مقاصد القرآن منسجماً مع رؤية المعهد في تطوير المنهج والآليات المناسبة للتعامل مع القرآن الكريم بوصفه الكتاب الكلي الأساس المهيمن. كما ينطلق كذلك من اهتمام المعهد بموضوع القيم الكلية الحاكمة الممثلة بالتوحيد والتزكية والعمران. ولعل المعهد أحدث في هذا الموضوع تراكماً معرفياً

معتبراً. وقد انتخبت هيئة تحرير المجلة عدداً من الأبحاث التي شاركت في مؤتمر "مقاصد القرآن الكريم في بناء الحضارة والعمران" الذي نظمه المعهد العالمي للفكر الإسلامي بالتعاون مع المعهد العالي للحضارة الإسلامية في جامعة الزيتونة/تونس عام ٢٠١٧م. ولعل ثمة إطاراً مشتركاً بين هذه الأبحاث المنتخبة؛ إذ إنها تركز على الإطار النظري والمنطلقات والأسس والمرجعيات التي تحكم موضوع مقاصد القرآن بشكل عام، ودوره في بناء الحضارة والعمران بشكل خاص. ونأمل أن تسهم بحوث هذا العدد من المجلة في تسليط مزيد من الضوء على مقاصد القرآن الكريم في بناء الحضارة والعمران، وموقعها في تراثنا الحضاري، وفي سعي أمتنا نحو استئناف حضورها في ساحة العالم وترشيد التقدم البشري في إطار الهداية القرآنية.

والله ولي التوفيق